College of Basic Education Researchers Journal. ISSN: 7452-1992 Vol. (18), No.(3), (2022)

CC BY

نماذج من سورة هود(دراسة تحليلية)

إيمان غانم حازم ريم توفيق خليل

(قدم للنشر في ٢٠٢٠/٥/٣، قبل للنشر في ١٢/ ٨/٢٠٢٠)

الملخص :

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبي بعده وآله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين وبعد :

فإن أجلَّ علم صرفت فيه الهمم، علم الكتاب المنزل ، إذ هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد فيه الهدى والشفاء، والرحمة والبيان، والموعظة الحسنة والتبيان، فلو أنفقت فيه الأعمار ما أدركت كل غوره، ولو بذلت الجهود كلها ما أنضبت من معينه شيئاً يذكر، ومن هنا اجتمعت كلمة علماء الأمة على العناية بتفسيره، وبيانه ودراسته، واستدرار كنوزه ، والنهل من معينه العذب النمير، ولأجل انكبابهم على دراسته، تنوعت طرائقهم في عرض علومه، واختلفت مشاريعهم في إيضاح مكنوناته، وكان القدح المعلى لعلم التفسير من ذلك كله ، ولهم في تناول هذا العلم والكتابة فيه أساليب عدّة ، ولعلّ من أهمها وأسبقها منهج التفسير التحليلي ، وقد اتبعت هذا المنهج في دراستي كونه منهجاً شاملاً يجمع بين الأصالة والمعاصرة ، فالماضي يمثل جذور الحاضر ، وصورة الحاضر معيار الإرتباط بالماضي ، وهذا التفاعل يولد حضارة يقاس عطاؤها من خلال قوة ارتباط ماضيها بحاضرها ، ويتطلب من الباحث أن يكون صاحب نظرة تجديدية ويحتاج إلى جهد كبير وعقل واع منفتح وسعة اطلاع وروح إبداع واستقلالية ذات تحفها هداية قرآنية ، وقد قسمت البحث إلى مبحثين، الأول: تعريف عام بسورة هود، وفيه ثلاثة مطالب، أما الأول فجاء بعنوان: أهمية سورة هود بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما الثاني: الوحدة الموضوعية لسورة هود ، والثالث: مناسبة سورة هود لما قبلها ، وأما المبحث الثاني فجاء بعنوان: نماذج تحليلية ، وقمت فيه بتحليل خمسة نماذج من بداية سورة هود، وانتهى البحث بخاتمة أوجزت فيها ما استطعت التوصل إليه من نتائج .

المبحث الأول: تعريف عام بسورة هود

المطلب الأول: أهمية سورة هود بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

سورة هود عليه السلام كغيرها من سور القرآن الكريم ، وهي وإن شيبت الرسول صلى الله عليه وسلم تحمل بين طياتها الروعة والبهاء ، وتخفي في باطنها البلسم والشفاء ، ويستقر في أحشائها نور واضح وبرهان ساطع . وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ : أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ شِبْتَ! قَالَ:" شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ"(١)، وفي رواية أخرى قيل يَا رَسُولَ اللَّهِ نَرَاكَ قَدْ شِبْتَ! قَالَ:" شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا"(٢). قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: فَالْفَزَعُ يُورِثُ الشَّيْبَ وَذَلِكَ أَنَّ الْفَزَعَ يُذْهِلُ النَّفْسَ فَيُنَشِّفُ رُطُوبَةَ الْجَسَدِ، وَتَحْتَ كُلِّ شَعْرَةٍ مَنْبَعٌ، وَمِنْهُ يَعْرَقُ، فَإِذَا انْتَشَفَ الْفَزَعُ رُطُوبَتَهُ يَبِسَتِ الْمَنَابِعُ فَيَبِسَ الشَّعْرُ وَابْيَضَّ، كَمَا تَرَى الزَّرْعَ الْأَخْضَرَ بسقاية، فَإِذَا ذَهَبَ سِقَاؤُهُ يَبِسَ فَابْيَضَّ، وَإِنَّمَا يَبْيَضُّ شَعْرُ الشَّيْخِ لِذَهَابِ رُطُوبَتِهِ وَيُبْسِ جِلْدِهِ، فَالنَّفْسُ تَذْهَلُ بِوَعِيدِ اللَّهِ ، وَأَهْوَالِ مَا جَاءَ بِهِ الْخَبَرُ عَنِ اللَّهِ، فَتَذْبُلُ، وَيُنَشِّفُ مَاءَهَا ذَلِكَ الْوَعِيدُ وَالْهَوْلُ الَّذِي جَاءَ بِهِ، فَمِنْهُ تَشِيبُ (٣).

المطلب الثاني: الوحدة الموضوعية لسورة هود :

لعلّ من ملامح الوحدة الموضوعية التي ترسمها سورة هود عليه السلام الحال الواحدة للرسل الكرام مع ربهم ، وينقل لنا سيد قطب وحدة التعبير القرآني قائلاً :

((والذي يرجح هذا عندي هو وحده التعبير القرآني في السورة– في تصوير ما بين الرسل الكرام وربهم، من بينة يجدونها في أنفسهم، يستيقنون معها أن الله هو الذي يوحي إليهم، ويجدون بها ربهم في قلوبهم وجوداً مستيقناً واضحاً لا يخالجهم معه شك ولا ريبة ... وهذا التوحيد في التعبير عن الحال الواحدة مقصود قصداً في سياق السورة لإثبات أن شأن النبي– صلى الله عليه وسلم– مع ربه ومع الوحي الذي تنزل عليه شأن سائر الرسل الكرام قبله مما يبطل دعاوى المشركين المفتراة عليه– صلى الله عليه وسلم– كذلك لتثبيته هو والقلة المؤمنة معه على الحق)) (٤).

المطلب الثالث: مناسبة سورة هود لما قبلها :

إنّ وجه اتصال سورة هود بسورة يونس عليهما السلام أنه ذكر في سورة يونس قصة نوح عليه السلام مختصرة جداً مجملة فشرحت في هذه السورة وبسطت فيها ما لم تبسط في غيرها من السور ولا سورة الأعراف على طولها ولا سورة نوح التي أفردت لقصته فكانت هذه السورة شارحة لما أجمل في سورة يونس فإنّ قوله تعالى: (واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين)[٥] هو عين قوله تعالى : (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصـــلت من لدن حكيم خبير)[٦] فكان أول هود تفصيلاً لخاتمة يونس .[٧]

المبحث الثاني: نماذج تحليلية

النموذج الأول: قوله تعالى : (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) [٨]

ابتدأت الآية الكريمة بالحروف المقطعة وفي تفسيرها وجهان :

الوجه الاول ؛ مذهبَ الخليلُ وسيبويه : (ألر) إسمٌ للسورةِ ، و محلها الرفع على الابتداء وقوله : (كتابٌ) خبر لها ، أو النصب بتقدير فعل يناسب المقام ، نحو : اذكر أو اقرأ .[٩]الوجه الثاني : مذهب الكلبي والسدي : المراد بـ (ألر) القرآن وكذا المراد بـ (الكتاب) القرآن أيضاً لإقتضاء الحمل الإتحاد في الخارج [١٠] ، وأنها مذكورة على نمط تعديد الحروف للتحدي والإعجاز وعندئذٍ يكون قوله سبحانه وتعالى: (كِتابٌ) خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : هذا كتاب [١١] ، وخطَّأَ الزجاج أصحاب الرأي الأول معللاً ذلك بأنّ (ألر) ليس هو الموصوف بهذه الصفة وحده [١٢]مؤيداً أصحاب الرأي الثاني بقوله : ((كتابٌ مرفوع بإضمار هذا كتاب)) ، وردَّ الرازي اعتراض الزجاج هذا بقوله : ((وَهَذَا الِاعْتِرَاضُ فَاسِدٌ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ كَوْنِ الشَّيْءِ مُبْتَدَأً أَنْ يَكُونَ خَبَرُهُ مَحْصُورًا فِيهِ، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ وَقَعَ لِلزَّجَّاجِ هَذَا السُّؤَالُ، ثُمَّ إِنَّ الزَّجَّاجَ اخْتَارَ قَوْلًا آخَرَ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: الر هَذَا كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ، وَعِنْدِي أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ ضَعِيفٌ لِوَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يَقَعُ قَوْلُهُ: الر كَلَامًا بَاطِلًا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَالثَّانِي: أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ هَذَا كِتَابٌ، فَقَوْلُهُ: «هَذَا» يَكُونُ إِشَارَةً إِلَى أَقْرَبِ الْمَذْكُورَاتِ، وَذَلِكَ هُوَ قَوْلُهُ: الر فَيَصِيرُ حِينَئِذٍ الر مُخْبَرًا عَنْهُ بِأَنَّهُ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ، فَيَلْزَمُهُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ مَا لَمْ يَرْضَ بِهِ فِي الْقَوْلِ الْأَوَّلِ)) .[١٣]

وعلى قولِ أصحابِ الرأيّ الأَول (انّها اسم للسورةِ)يجوزُ قولُكَ : (هذهِ هودُ) بغيرِ تنوين ، كما يجوزُ قولُكَ : (هذهِ هودٌ) بالتنوين ، قالَ أبو جعفر النحاس : ((هذه هود فاعلم بغير تنوين على أنه اسم للسورة لأنك لو سمّيت امرأة بزيد لم تصرف هذا قول الخليل وسيبويه ، وعيسى يقول: هذه هود فاعلم بالتنوين على أنه اسم للسورة وكذلك لو سمّى امرأة بزيد لأنه لمّا سكن وسطه خفّ فصرف فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع فقلت: هذه هود فاعلم تريد هذه سورة هود. قال سيبويه: والدليل على هذا أنك تقول: هذه الرحمن فلولا أنك تريد سورة الرحمن ما قلت هذه)) .[١٤]

قال العكبري : ((إِنْ جَعَلْتَ (هُودًا) اسْمًا لِلسُّورَةِ لَمْ تَصْرِفْهُ لِلتَّعْرِيفِ وَالتَّأْنِيثِ، وَيَجُوزُ صَرْفُهُ لِسُكُونِ أَوْسَطِهِ عِنْدَ قَوْمٍ، وَعِنْدَ آخَرِينَ لَا يَجُوزُ صَرْفُهُ بِحَالٍ؛ لِأَنَّهُ مِنْ تَسْمِيَةِ الْمُؤَنَّثِ بِالْمُذَكَّرِ، وَإِنْ جَعَلْتَهُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَرَفْتَهُ)) .[١٥]

وفي قوله تعالى : (أحكمت آياته) يوضح المولى عزَّ وجلَّ أنّ هذا الكتاب عظيم الشأن جليل

القدر نظمت آياته نظماً متقناً لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه .[١٦]((وعبّر بالمستقبل لأنّ الماضي والحال مفروغ عنه))[١٧] ، وفي إحكام آياته تعالى أربعة معان :

الأول : أن يكون مستعاراً من أحكام البناء فلا يخالف ولا يناقض الواقع والحكمة ولايخل بالفصاحة والبلاغة .[١٨]

الثاني : انّ الإحكام منع القول من الفساد والبطلان .[١٩]((وقيل: المراد منعت من الفساد أخذا من أحكمت الدابة إذا جعلت في فمها الحكمة وهي حديدة تجعل في فم الدابة تمنعها من الجماح، فكأن ما فيها من بيان المبدأ والمعاد بمنزلة دابة منعها الدلائل من الجماح، ففي الكلام استعارة تمثيلية أو مكنية)) .[٢٠]

قال البيضاوي : ((منعت من الفساد والنسخ)) [٢١] ، والعطف هنا تفسيري حيث فسر الفساد بالنسخ ، وعلى هذا يكون التشبيه بالدابة ركيك مستهجن [٢٢] ، ولاداعي للإستعارة فالكلام على معناه الحقيقي ، وفي ذلك يقول القونوي : ((وإرادة معنى غير النسخ ليس بصحيح كما لايخفى))[٢٣]

الثالث : ان إحكامها يكون بتحقق مدلولاتها بالحجج والبراهين.[٢٤]

الرابع : المعنى أنّها جعلت حكيمة لإشتمالها على أصول العقائد والأعمال الصالحة والنصائح والحِكَم ، وفي ذلك مجاز مرسل في الطرف والإسناد فالمراد حكيم قائلها في الذكر الحكيم [٢٥] ، وعلى هذا الوجه فالهمزة في (أحكمت) للنقل من (حَكُمَ) بضم الكاف إذا صار حكيماً ، بخلاف الوجوه الثلاثة الأولى فإنّ الهمزة فيها ليست للنقل .[٢٦]

((وجملة أحكمت آياته صفة لكتاب))[٢٧] ، وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير : ((ولك أن تجعل أحكمت آياته صفة مخصَّصة))[٢٨] .

وللتفصيلِ في قولهِ تعالى : (ثمَّ فصلت) وجوهاً خمسة[٢٩] :

الوجه الأول : جعلت كالقلائد المفصلة بالفرائد لما فيها من دلائل التوحيد والإحكام والمواعظ والقصص[٣٠]، وفي الكلام استعارة تمثيلية حيث شبَّه القرآن باللآلئ المنظومة والعقائد والإحكام والمواعظ شبهت بالفرائد واللآلئ الكبيرة في الفصل والتفريق [٣١].

الوجه الثاني : جعلت فصولاً سورة وآية آية ، إذ الفصل كما قال الراغب : ((الفَصْلُ: إبانة أحد الشّيئين من الآخر: حتى يكون بينهما فرجة، ومنه قيل: المَفَاصِلُ، الواحد مَفْصِلٌ، وفَصَلْتُ الشاة: قطعت مفاصلها، وفَصَلَ القوم عن مكان كذا، وانْفَصَلُوا: فارقوه.))[٣٢] ، وعلى إرادة التفصيل يكون المراد بالكتاب القرآن وبالآيات آياته .[٣٣]

الوجه الثالث : فرقت في التنزيل فلم تنزل جملة واحدة ليسهل حفظها .[٣٤]وعلقَّ القونوي على هذا الوجه بقوله : ((وفيه ضعف لايخفى)) .[٣٥]

الوجه الرابع : فصِّل فيها مهمات العباد في المعاش والعباد [٣٦] ، وعلى هذا الوجه لايكون التفصيل بمعنى الفصل بمعنى الإبانة بل بمعنى التلخيص الذي هو بمعنى التبيين وهو من الإسناد المجازي .[٣٧] ((لأنّ التلخيص من لوازم التفصيل بخلاف الأوجه الثلاثة الأولى فإنّها على الحقيقة))[٣٨].

وعلى هذه الأوجه الأربعة قراءة الجمهور (فُصِّلت) بالضم والتشديد .[٣٩]

الوجه الخامس : فرقت بين الحق والباطل .[٤٠]وعلى هذا الوجه قراءة عكرمة والضحَّاك والجحدري وزيد ابن علي وابن كثير في رواية «فَصَلَتْ» بفتحتين خفيفةَ العين.[٤١]

وجعل الزمخشري «ثمَّ» للترتيب في الإخبار لا لترتيب الوقوع في الزمان فقال: «فإن قلت: ما معنى ثم؟ قلت: ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال، كما تقول: هي مُحْكَمَةٌ أحسنَ الإحكام ثم مُفَصَّلةٌ أحسنَ التفصيل، وفلانٌ كريمٌ الأصل ثم كريمُ الفعل» .[٤٢]

وقوله (مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) صفة ثانية لـ (كتاب) وصف بها بعد ما وصف بإحكام آياته ، ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر، كما يجوز أن يكون صلة لأحكمت وفصلت، أى: معمولاً لأحد الفعلين على سبيل التنازع لأنَّ المعنى: أحكمها حكيم وفصلها خبير[٤٣] ، ((وعلى كل تقدير يكون المقصود منه تقرير أحكامها وتفصيلها))[٤٤] ، ((وفيه طباق حسن)) .[٤٥]

النموذج الثاني: قوله تعالى: (ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير)[٤٦]

تشـــتملُ الآيةُ الكريمةُ عَلَى التَّكْلِيفِ مِنْ وُجُوهٍ أولُها : أَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ بِأَنْ لَا يَعْبَدَ غيرهُ ، وَإِذَا قُلْنَا: الِاسْتِثْنَاءُ مِنَ النَّفْيِ إِثْبَاتٌ، كَانَ مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ واضح ، وَالْعِبَادَةُ عِبَارَةٌ عَنْ إِظْهَارِ الْخُضُوعِ وَالْخُشُوعِ وَنِهَايَةِ التَّوَاضُعِ وَالتَّذَلُّلِ وَهَذَا لَا يَلِيقُ إِلَّا بِالْخَالِقِ الْمُدَبِّرِ الرَّحِيمِ الْمُحْسِنِ، فَثَبَتَ أَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّه مُنْكَرَةٌ، وَالْإِعْرَاضَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّه مُنْكَرٌ.[٤٧]

وقوله تعالى : (ألا تعبدوا إلا الله) يجوز أن يكون متصـــلا بما قبله وحينئذ يكون في (أن) وجهان[٤٨]:

الوجه الأول :(أن) مصـدرية ناصـبة للفعل المضـارع ، ويجوزُ أَنْ تكون «لا» نافيةً، والفعلُ بعدها منصوبٌ بـــ «أَنْ» نفسها ، كما يجوز أن تكون لا ناهية والفعل بعدها مجزوم ، حيث يجوز وصل (أن) المصـــدرية بالأمر والنهي مع فوات معنى الأمر والنهي وبقاء مجرد معنى المصـــدر فجملة (لاتعبدوا) في الآية الكريمة وان كانت نهياً لكن المراد به ترك عبادة غير الله وكأنه قيل فصـــلت آيات القرآن لترككم عبادة غير الله .[٤٩]

الوجه الثاني : (أن) تكون مفسرة لما في تفصيل الآيات من معنى القول دون حروفه .[٥٠]قال الرازي : ((والحمل على هذا أولى)) ،[٥١]وقال أبو حيان في البحر المحيط : ((وهذا أظهر لأنه لايحتاج إلى إضمار)) .[٥٢]

ويجوز أن يكون قوله تعالى : (ألا تعبدوا إلا الله) منقطعاً عمّا قبله ، وعلى هذا القول وجهان [٥٣] :

الوجه الأول : قصد الإغراء على التوحيد .

الوجه الثاني : قصد التبري عن عبادة الغير .

فإن قدّر ألزموا ترك عبادة غيره على أنه مفعول به فهو إغراء، وان قدّر اتركوا ترك عبادة غيره فهو مفعول مطلق للتبرّي عن عبادة الغير .

وقيَّد الزمخشـري الإغراء بكونه على لسـان النبي صـلى الله عليه وسـلم بقوله : ((ويجوز أن يكون كلاما مبتدأ منقطعاً عما قبله على لسان النبي صلى الله عليه وسلم إغراء منه على اختصاص الله بالعبادة. ويدل عليه قوله : إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)) .[٥٤]

ويمكن توضيح ماورد بالمخطط الآتي :

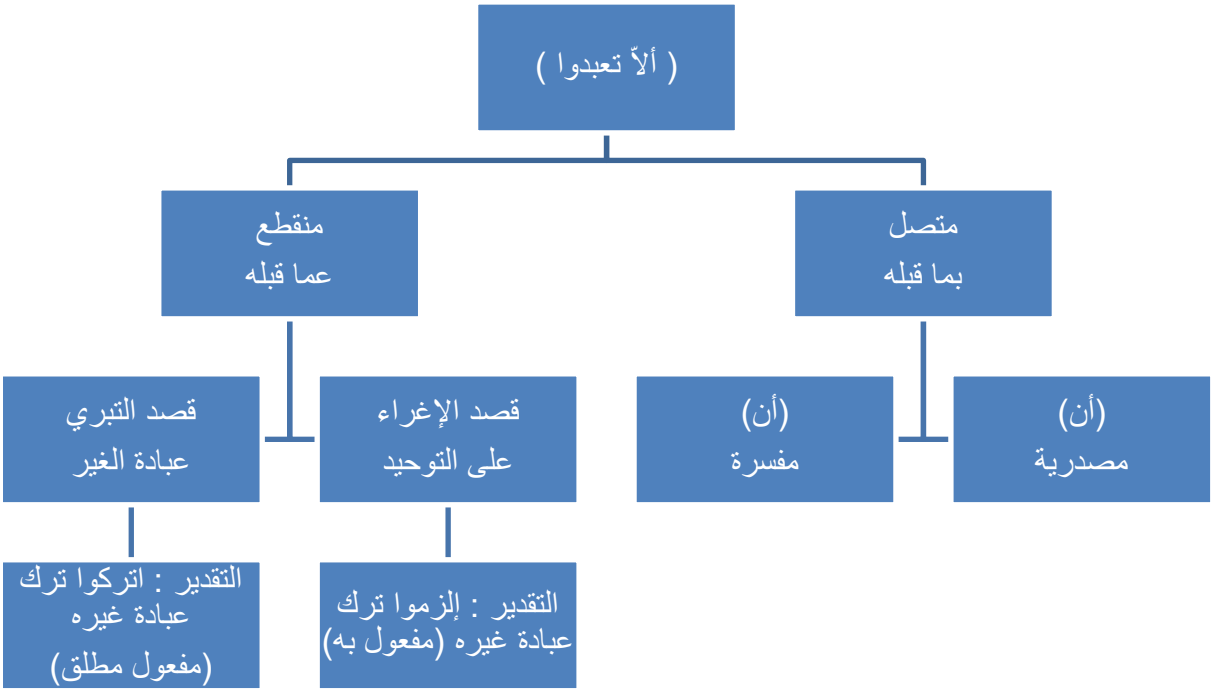

وقيل (أن) مخففةً من الثقيلة، و «لا تَعْبُدوا» جملةُ نهيٍ في محلِّ رفعٍ خبرلـــــ «أنْ» المخففةِ، واسمُها ضميرُ الأمرِ والشأنِ محذوفٌ .[٥٥]

((ولما كان إرســاله صَــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ لأجل أن يأمر الناس بعبادة الله وحده ، اســتأنف الإخبار بأنه أرسله سبحانه مؤكداً له لأجل إنكارهم فقال: (إنّني) ، ولما كان إرساله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ لأجل رحمة العالمين، قدم ضــميرهم فقال: (لكم منه) أي خاصــة)).[٥٦] ، ويجوز أن يعود الضمير في (منه) إلى اللَّهِ عزَّ وجلّ أَيْ: إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مِنْ جِهَتِهِ وَبَشِيرٌ، فَيَكُونُ فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ، فَتُعَلَّقُ بِمَحْذُوفٍ أَيْ: كَائِنٌ مِنْ جِهَتِهِ. أَوْ تُعَلَّقُ بِنَذِيرٍ أَيْ: أُنْذِرُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ إِنْ كَفَرْتُمْ، وَأُبَشِّــرُكُمْ بِثَوَابِهِ إِنْ آمَنْتُمْ. وَقِيلَ: يَعُودُ عَلَى الْكِتَابَةِ أَيْ: نَذِيرٌ لَكُمْ مِنْ مُخَالَفَتِهِ، وَبَشِــيرٌ مِنْهُ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ بِهِ.وَقُدِّمَ النَّذِيرُ لِأَنَّ التَّخْوِيفَ هُوَ الْأَهَمُّ.[٥٧]

قال السـمين : ((وهذا على ظاهره ليس بجيد؛ لأن الصـفةَ لا تتقدمُ على الموصـوف فكيف تُجعلِ صفةً لــ «نذير» ؟ كأنه يريد أنه صفةٌ في الأصلِ لو تأخَّر، ولكنْ لمَّا تقدَّم صارَ حالاً، وكذا صَـرَّح به أبو البقاء، فكان صـوابه أن يقول: فيكون في موضـع الحال، والتقدير: كائناً مِنْ جهته)) [٥٨].

وقد روعي في تقديم الإنذار على التبشير ما روعي في الخطاب من تقديم النفي على الإثبات والتخلية قبل التحلية لتتجاوب الأطراف .[٥٩]

النموذج الثالث : قوله تعالى: (وأن اسـتغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسـنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير)[٦٠]

الآية الكريمة عطف على الآية التي سـبقتها (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) ، وَهُوَ تَفْسِـيرٌ ثَانٍ يَرْجِعُ إِلَى مَا فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى مِنْ لَفْظِ التَّفْصِيلِ، فَهَذَا ابْتِدَاءُ التَّفْصِيلِ ، وفيهِ بَيَانٌ وَإِرْشَادٌ لِوَسَائِلِ نَبْذِ عِبَادَةِ مَا عَدَا اللَّهَ تَعَالَى .[٦١]

وَالِاسْتِغْفَارُ: طَلَبُ الْمَغْفِرَةِ، أَيْ طَلَبُ عَدَمِ الْمُؤَاخَذَةِ بِذَنْبٍ مَضَى، وَذَلِكَ النَّدَمُ.[٦٢]

وَالتَّوْبَةُ: الندم على الخطيئة مع العزم على ترك المعاودة .[٦٣]

واختلف في توجيه توسيط (ثمَّ) بين الإستغفار والتوبة ، فذهب الزمخشري إلى أنّها على بابها من التراخي لأنه يسـتغفر أولا ثمّ يتوب [٦٤]، وجعل بعضـهم الاسـتغفار والتوبة بمعنى واحد فاحتاج ذلك إلى تأويل (توبوا) بـــ (أخلصـوا التوبة) فتكون (ثمَّ) لِلتَّرْتِيبِ الرُّتْبِيِّ [٦٥]، ولمّا ورد أن يقال أنّ التوبة هي الإستغفار ورد السؤال مامعنى إيراد (ثمّ) بين الشـئ ونفسـه ؟ إلى ذلك أشـار الشـيخ زادة بقوله : ((جعل التوبة هي الرجوع عن الضـــلال مجازاً في التوصـــل إلى المطلوب بطريق إطلاق السـبب على المسـبب ، وجعل كلمة (ثمَّ) قرينة للمجاز لأن التوصـــل إلى المطلوب يتراخى عن الرجوع إلى الطريقة)) .[٦٦]

وقوله تعالى : (يُمَتِّعكُم) جواب الأمر ، وذهب البعض إلى أن الجازم هو الجملة الطلبية (ان اسـتغفروا ربكم)وذهب البعض الآخر إلى أنه حرف شـرط مقدّر [٦٧]، والْمَتَاعُ: اسْـمُ مَصْـدَرِ التَّمْتِيعِ لِمَا يُتَمَتَّعُ بِهِ، أَيْ يُنْتَفَعُ وَيُطْلَقُ عَلَى مَنَافِعِ الدُّنْيَا[٦٨] ، وقال الزجاج المعنى ((يبقيكم ولايسـتأصـلكم بالعذاب كما استأصل أهل القرى الذين كفروا))[٦٩]

وقيّد المتاع بكونه حسـناً ، وَوَصَـفَهُ بِالْحُسْـنِ لِإِفَادَةِ أَنَّهَا حَيَاةٌ طَيِّبَةٌ[٧٠] ، ولابد أن يكون لذلك المتاع نهاية وهو المراد بقوله (إلى أجل) ، وهذا الأجل مقدّر عنده تعالى ولادلالة في الآية على أن

للإنسان أجلين كما زعم المعتزلة .[٧١]

((وقرأ الحسن وابن هرمز وزيد بن علي وابن محيصن «يُمْتِعْكم» بالتخفيف مِنْ أَمْتَعَ)) .[٧٢]

ولمّا تَرَتَّبَ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ الْمَتَاعُ الْحَسَنُ فِي الدُّنْيَا تَرَتَّبَ عَلَى التَّوْبَةِ إِيتَاءُ الْفَضْلِ فِي الْآخِرَةِ، وَنَاسَبَ كُلَّ جَوَابٍ لِمَا وَقَعَ جَوَابًا لَهُ، لِأَنَّ الِاسْتِغْفَارَ مِنَ الذَّنْبِ أَوَّلُ حَالِ الرَّاجِعِ إِلَى اللَّهِ، فَنَاسَبَ أَنْ يُرَتَّبَ عَلَيْهِ حَالُ الدُّنْيَا. وَالتَّوْبَةُ هِيَ الْمُنْجِيَةُ مِنَ النَّارِ، وَالَّتِي تُدْخِلُ الْجَنَّةَ، فَنَاسَبَ أَنْ يُرَتَّبَ عَلَيْهَا حَالُ الْآخِرَةِ ، وَالضَّمِيرُ فِي فَضْلِهِ يُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَيْ: يُعْطِي فِي الْآخِرَةِ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ، وَزِيَادَةً مَا تَفَضَّلَ بِهِ تَعَالَى وَزَادَهُ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى كُلَّ أَيْ: جَزَاءُ ذَلِكَ الْفَضْلِ الَّذِي عَمِلَهُ فِي الدُّنْيَا لَا يُبْخَسُ مِنْهُ شَيْءٌ .[٧٣]

ثمَّ شرع في الإنذارِ بقولهِ سبحانه : (وان تولوا)والمراد بالتولي الإعراض عمّا ألقي إليهم من التوحيد والإستغفار والتوبة وأصله (تتولوا) مضارع مبدوء بتاء الخطاب ، وإنما أُخّر عن البشارة جرياً على سنن تقدمِ الرحمةِ على الغضب أو لأن العذابَ قد علّق بالتولي عما ذكر من التوحيد والاستغفار والتوبة وذلك يستدعي سابقةَ ذكرِه .[٧٤]

وَقَرَأَ عِيسَى بْنُ عُمَرَ الْيَمَانِيُّ (من الشواذ) وَإِنْ تَوَلَّوْا بِضَمِّ التَّاءِ وَاللَّامِ، وَفَتْحِ الْوَاوِ، مُضَارِعُ وَلَّى، وَالْأُولَى مضارع أولى ، وَقَرَأَ الْأَعْرَجُ: تُولُوا بِضَمِّ التَّاءِ وَاللَّامِ، وَسُكُونِ الْوَاوِ، مُضَارِعُ أَوْلَى .[٧٥]

وَوُصِفَ يَوْمٌ بِـ(كبير) وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لِمَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ. وَقِيلَ: هُوَ يَوْمُ بَدْرٍ ، وَأَبْعَدَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ كَبِيرٍ صِفَةٌ لعذاب، وخفض على الجوار .[٧٦]

النموذج الرابع: قوله تعالى: (إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير)[٧٧]

في الآيةِ الكريمة تهديدٌ عظيمٌ وَتصريحٌ بِالْبَعْثِ [٧٨]، إلى الله رجوعكم في ذلك اليوم ، والمجازاة على الأعمال ، و (رجوعكم) مصدر ميمي شاذ عن القياس ، إذ القياس فتح الجيم لأنه من باب ضرب [٧٩]لكن لما ثبت في اللغة كذلك لايكون مخالفاً للقياس فإنّ أمثال هذه تكون في حكم المستثناة .[٨٠]

وفي الآية الكريمة تقرير وتثبيت لكبر اليوم و تنبيه على أن الكبر وصف لما وقع به وصف اليوم للملابسة ورجحان كون المراد باليوم يوم القيامة .[٨١]

النموذج الخامس: قوله تعالى: (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور)[٨٢]

صُـدِّرت الآية الكريمة بأداة التنبيه (ألا) إشـعاراً بأنّ مابعدها أمرٌ ينبغي أن يُفهم ويُتعجب منه وكأنّ قوله تعالى : (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه)جوابٌ لسؤالٍ مُقَدَّرٍ ، وذلك أنه لما ألقي إليهم ما ألقي وسيق إليهم ما سيق من الترغيب والترهيب وقع في ذهن السامع أنهم بعد ما سمعوا مثل هذا المقال الذي تخرُّ له صـــمّ الجبال ،هل قابلوه بالإمتثال أم بالإعراض ؟ فضـــمير إِنَّهُمْ للمشـركين المخاطبين فيما تقدم و «يثنون» بفتح الياء مضـارع ثنى الشـيء ، وأصـله يثنيون فأعلّ بالإعلال المعروف في نحو يرمون [٨٣]، وفي المراد منه احتمالات[٨٤] :

الأول : الثني كناية أو مجاز عن الإعراض عن الحق لأن من أقبل على شيء واجهه بصدره ومن أعرض صـرفه عنه، أي إنهم يثنون صـدورهم عن الحق ويتحرفون عنه، والمراد اسـتمرارهم على ما كانوا عليه من التولي والإعراض المشار إليه بقوله سبحانه: (وَإِنْ تَوَلَّوْا) .

الثاني : الثني مجاز عن الإخفاء لأن ما يجعل داخل الصـــدر فهو خفي أي إنهم يضـــمرون الكفر والتولي عن الحق وعداوة النبي صلّى الله عليه وسلم.

الثالث : الثني باق على حقيقته، والمعنى أنهم إذا رأوا النبي عليه الصـلاة والسـلام فعلوا ذلك وولّوا ظهورهم.

ويرى الآلوسي أنّ اللام متعلقة بـــ (يثنون) على سائر الإحتمالات [٨٥]، بينما يرى بعضهم[٨٦] عدم صـحة التعلق على الإحتمال الأول ، و التَجأ إلى إضـمار الإرادةِ حيث قال ويريدون ليسـتخفوا من الله تعالى فلا يُطْلِعَ رســـولَه والمؤمنين على إعراضـــهم وجعلُه في قَوْد المعنى إليه من قبيل الإضـمار قي قوله تعالى اضـرب بّعَصَـاكَ البحر فانفلق أي فضـرب فانفلق معللاً ذلك بأنّ التولي لايصـلح سببا للإسـتخفاء [٨٧]، وردّه أبو السـعود بقوله : ((ولا يخفى أن انسـياقَ الذهنِ إلى توسـيط الإرادةِ بين ثنْيِ الصـدورِ وبين الاسـتخفاءِ ليس كانسـياقِه إلى توسـيط الضـربِ بين الأمرِ به وبين الانفلاقِ ولعل الأظهرَ أن معناه يعطِفون صـــدورَهم عَلى ما فَيها من الكفر والإعراضِ عن الحق وعداوةِ النبيِّ صـلَّى الله عليهِ وسلم بحيث يكون ذلك مخفياً مستوراً فيها كما تُعطف الثيابَ عَلى ما فَيها من الأشياء المستورةِ وإنما لم يذكرْ ذلك استهجاناً بذكره أو إيماءً إلى أن ظهورَه مغنٍ عن ذكره أو ليذهبَ ذهنُ الســـامعِ إلى كل ما لا خيرَ فيه من الأمور المذكورةِ فيدخُل فيه ما ذُكر من تولّيهم عن الحق الذي أُلقيَ إليهم دخولاً أولياً فحينئذ يظهر وجهُ كونِ ذلك سبباً للاستخفاء)) [٨٨]، ((ويؤيده ما رُوي عن ابنِ عباس رضـي الله عنهما أنها نزلتْ في الأخنسِ بنِ شُرَيقٍ وكان رجلاً حلوَ المنطِق

حسنَ السياقِ للحديث يُظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبةَ ويُضمِرُ في قلبه ما يضادُّها وقال ابن شداد أنَّها نزلتْ في بعضِ المنافقين كان إذا مرَّ برسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم ثنى صدرَه وظهرَه وطأطأ رأسَه وغطَّى وجهَه كيلا يراه النبيّ صلَّى الله عليهِ وسلم))[٨٩]، وهم يظنون أنه يخفى عليه صلّى الله عليه وسلم، لكن ظاهر قوله تعالى : (يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ) يقتضي عود الضمير إليه تعالى ، ((وما مصدرية اى أسرارهم واعلانهم او بمعنى الذي والعائد محذوف)) [٩٠]، ((وصيغة الإستقبال في يسرون ويعلنون للإستمرار أو لحكاية الحال الماضية)) [٩١]، وإنما ((قدم السرُّ على العلن نعياً عليهم من أول الأمر ما صنعوا وإيذاناً بافتضاحِهِم ووقوعِ ما يحذَرونه وتحقيقاً للمساواة بين العِلْمين على أبلغ وجهٍ فكأن علمَه بما يُسرونه أقدمُ منه بما يعلنونه)) [٩٢].

وجاء التعبير بالجملة الإسمية في قوله تعالى: (إنه عليم بذات الصدور)تعليلاً لما سبق وتقريراً له ، والمراد بـ(بذات الصدور) الأسرار المستكنة فيها أو القلوب التي في الصدور ، والعلم بالقلوب مجاز عن العلم بأحوالها والقلب مجاز عن الاحوال بعلاقة الحلول [٩٣] .

خاتمة

بعد هذا التطواف الجميل في رحاب سورة من سور القرآن الكريم حيث الجوّ القرآني الذي يحلّق بنا الى معالي المكرمات , حيث نفحات الإيمان التي تمنح القلب ثباتاً وتبعث في النفس الطمأنينة , وتكشف الفوائد جمّة , ولعل أهمها ما يأتي :

١. هذه السورة المباركة حملت أبلغ الطرق , وأمثل السبل لتبليغ مضامين الرسالة في الدعوة الى التوحيد , ووصف الكتاب بالإحكام والتفصيل , وسرد القصص القرآني .
٢. إن سورة هود أنموذج حي صالح لكل زمان ومكان , ولا زلنا نعيش في عصرنا الحالي كثيرا من القصص المماثلة ، ولكن العبرة لمن يتعظ .
٣. ان سورة هود اجتمعت فيها من الأساليب البلاغية و الظواهر اللغوية و الألوان البيانية و الفنون البديعية ما يمكن أن تمثل بمفردها معجماً للمصطلحات البلاغية .

وختاما اسأله ما ينفعنا وينفعنا بما علمنا , وأن يجعلنا من خدمة العلم وأهله , وأن لا يجعل للهوى على عقولنا سبيلا , ولا للرياء على عملنا دليلا ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الهوامش

(١) سنن الترمذي ، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ) ، باب : ومن سورة الواقعة ، رقم الحديث (٣٢٩٧) تحقيق : إبراهيم عطوة عوض ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط٢(مصر-١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م) ج٥/ص٤٠٢ .
(٢) مسند أبو يعلى الموصلي ، الإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي ، رقم الحديث (٨٨٠)دار المأمون للتراث ، ط٢ (بيروت-١٩٩٠م) ج٢/ص١٨٤ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١/٩ .
(٤) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ١٨٦٤/٤ .
(٥) سورة يونس : ١٠٩ .
(٦) سورة هود : ١ .
(٧) ينظر : روح المعاني ، الآلوسي : ٣١٩/١١-٣٢٠ .
(٨) سورة : هود
(٩) ينظر : روح المعاني : ٣٢٢/١١-٣٢٣ .

(١٠) ينظر : حاشية القونوي على تفسير البيضاوي ،القونوي : ٣/١٠ .
(١١) ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، البيضاوي : ١٢٧/٣ .
(١٢) ينظر : معاني القرآن وإعرابه ، الزجاج : ٣٧/٣ ؛ مفاتيح الغيب ، الرازي : ٣١٢/١٧ .
(١٣) مفاتيح الغيب: ٣١٢/١٧ .
(١٤) إعراب القرآن ، النحاس : ١٦٠/٢ .
(١٥) التبيان في إعراب القرآن ، العكبري : ٦٨٨/٢ .
(١٦) ينظر : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين ، الجمل : ٤٠٦/٣ ؛ روح المعاني ١٩٠/٦.
(١٧) حاشية الشهاب ، شهاب الدين الخفاجي : ١١٤/٥ .
(١٨) ينظر : المصدر نفسه : ١١٤/٥
(١٩) الجامع لأحكام القرآن: ٢/٩ ؛ غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، النيسابوري : ٥/٤ .
(٢٠) روح المعاني :٣٢٣/١١.
(٢١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١٢٧/٣ .
(٢٢) ينظر : حاشية الشهاب : ١١٤/٥ .
(٢٣) ينظر : حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي ، شيخ زادة : ٦١٤/٤ ؛ حاشية الشهاب : ٥/ ١١٤ .
(٢٤) حاشية القونوي : ٣/١٠ .
(٢٥) ينظر : حاشية شيخ زادة : ٦١٤/٤ ؛ حاشية الشهاب : ١١٤/٥ ؛ روح المعاني : ١٩١/٦ .
(٢٦) ينظر : حاشية ابن التمجيد ، الرومي : ٤/١٠ .
(٢٧) اعراب القرآن وبيانه ، محي الدين درويش : ٣٠٩/٤ .
(٢٨) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ٣١٤/١١ .
(٢٩) ينظر : حاشية القونوي : ٧/١٠ .
(٣٠) ينظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، الزمخشري : ٣٧٧/٢ ؛ أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١٢٧/٣ ؛ غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٦/٤ ؛ روح المعاني : ٣٢٤/١١ .
(٣١) ينظر : حاشية القونوي :٦/١٠ .
(٣٢) المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني : ٦٣٨/١ .
(٣٣) ينظر : حاشية الشهاب : ١١٥/٥ .
(٣٤) ينظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : ٣٧٧/٢ ؛ غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٦/٤ ؛ روح المعاني : ٣٢٥/١١ .
(٣٥) حاشية القونوي :٦/١٠ .
(٣٦) ينظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : ٣٧٧/٢ ؛ روح المعاني : ٣٢٤/١١ .
(٣٧) ينظر : حاشية الشهاب : ٥/ ١١٥ ؛ حاشية القونوي :٦/١٠ .
(٣٨) حاشية ابن التمجيد : ٦/١٠ .
(٣٩) ينظر : التبيان في إعراب القرآن ، العكبري : ٦٨٨/٢ .
(٤٠) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : ٣٧٧/٢ .
(٤١) ينظر : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ،السمين الحلبي : ٢٧٩/٦ .
(٤٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : ٣٧٧/٢ .

(٤٣) ينظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : ٣٧٧/٢ ؛ مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، النسفي : ٤٦/٢ ؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، أبو السعود : ١٨٣/٤ .
(٤٤) حاشية شيخ زادة : ٦١٥/٤ .
(٤٥) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : ١٤٧٧/٢.

(٤٦) سورة هود : ٢ .
(٤٧) ينظر : مفاتيح الغيب ٣١٤/١٧ .
(٤٨) ينظر : حاشية الشهاب : ١١٦/٥ ؛ حاشية القونوي : ٨/١٠ .
(٤٩) ينظر : حاشية ابن التمجيد :٩/١٠ ؛ حاشية الشهاب : ١١٦/٥-١١٧ ؛ حاشية القونوي : ٩/١٠ ؛ الفتوحات الإلهية: ٤٠٧/٣ .
(٥٠) ينظر : مفاتيح الغيب ٣١٤/١٧ ؛ البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي : ١٢٠/٦ ؛ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: ٢٨١/٦ ؛ التحرير والتنوير : ٣١٥/١١ .
(٥١) مفاتيح الغيب ٣١٤/١٧ .
(٥٢) البحر المحيط : ١٢٠/٦ .
(٥٣) ينظر : حاشية ابن التمجيد :٩/١٠ ؛ حاشية الشهاب : ١١٧/٥ ؛ حاشية القونوي :١٠/١٠ ؛ الفتوحات الإلهية: ٤٠٧/٣ .
(٥٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : ٣٧٨/٢ .
(٥٥) ينظر : البحر المحيط : ١٢٠/٦ ؛ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : ٢٨٠/٦ .
(٥٦) ينظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، البقاعي : ٢٢٦/٩ .
(٥٧) ينظر : البحر المحيط : ١٢٠/٦ .
(٥٨) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون :٢٨١/٦.
(٥٩) ينظر : روح المعاني : ٣٣٠/١١ .
(٦٠) سورة هود : ٣
(٦١) ينظر : التحرير والتنوير : ٣١٧/١١ .
(٦٢) ينظر : معجم الفروق اللغوية ، العسكري : ٤٨/١ ؛ التحرير والتنوير : ٣١٧/١١ .
(٦٣) معجم الفروق اللغوية : ٤٨/١
(٦٤) ينظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : ٣٧٨/٢ ؛ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : ٣٨٢/٦ .
(٦٥) ينظر : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : ٣٨٢/٦ ؛ روح المعاني : ٣٣٠/١١ .
(٦٦) حاشية شيخ زادة : ٦١٧/٤ .
(٦٧) ينظر : روح المعاني : ٣٣١/١١ .
(٦٨) التحرير والتنوير : ٣١٧/١١ .
(٦٩) معاني القرآن وإعرابه : ٣٨/٣ .
(٧٠) التحرير والتنوير : ٣١٧/١١ .
(٧١) روح المعاني : ٣٣٢/١١ .
(٧٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : ٣٨٢/٦ .
(٧٣) البحر المحيط : ١٢١/٦ .
(٧٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ١٨٤/٤.
(٧٥) ينظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية : ١٥٠/٣ .
(٧٦) ينظر : البحر المحيط: ١٢١/٦ .
(٧٧) سورة هود : ٤
(٧٨) البحر المحيط :١٢١/٦ .
(٧٩) ينظر :حاشية الشهاب ١٢٠/٥؛ روح المعاني : ٣٣٣/١١ .
(٨٠) ينظر : حاشية القونوي : ١٤/١٠ .
(٨١) ينظر : المصدر نفسه :١٤/١٠ .
(٨٢) سورة هود : ٥ .

(٨٣) ينظر : روح المعاني :٣٣٤/١١.
(٨٤) ينظر : حاشية الشهاب ١٢٠/٥؛ حاشية القونوي : ١٤/١٠-١٥ ؛ روح المعاني : ٣٣٤/١١ .
(٨٥) ينظر : روح المعاني : ٣٣٤/١١ .
(٨٦) هو الزمخشري في الكشاف ، ونقله الآلوسي عنه بواسطة أبي السعود في تفسيره : ١٨٥/٤ .
(٨٧) ينظر : روح المعاني : ٣٣٤/١١-٣٣٥.
(٨٨) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ١٨٥/٤.
(٨٩) المصدر نفسه : ١٨٥/٤ .
(٩٠) روح البيان ، الخلوتي : ٩٤/٤ .
(٩١) حاشية القونوي : ١٨/١٠ .
(٩٢) روح المعاني : ٣٣٩/١١ .
(٩٣) ينظر : حاشية القونوي : ١٩/١٠ .